بعض تصرفات التنظيم في أيامه الأولى، بدت غامضة، ويصعب تفسيرها (أ ف ب)

على تلك «المقاومات» في أنشطتهم الإعلامية، لينفوا وجود أيّ من عناصر «القاعدة» و«الدواعش» بين مقاتليهم، حيث أتضح انها مجرد كذبة واضحة، تفضحها تصريحات الرجل الأول في (إمارة المكلا الإسلامية).

من اللافت للنظر، أن بعض تصرفات التنظيم في أيامه الأولى، بدت غامضة، ويصعب تفسيرها، وتعطي انطباعا أوليا وكأن التنظيم يقوم بغزوة من غزواته العابرة، حيث يفجر ويهاجم أهدافه المحددة، وينهب البنوك، ثم يختفي مع ظهور ضوء النهار التالي، كما فعل بالضبط قبل حوالي سنتين، في ثاني أكبر مدن حضرموت بعد المكلا، مدينة سيؤن، حيث استمرت تلك الغزوة ليلة ساخنة من الاشتباكات، وتفجير خزائن البنوك، ثم أخذ غنائمه في اليوم التالي ورحل، وإلا فلماذا يهاجم ويفجر خزينة البنك المركزي مثلاً، إن كان جاء ليبقى ويقيم إمارة ويحكم؟

بقي فقط أن نلفت الانتباه، إلى أنه لم يسجل في المكلا بل وفي أغلب مناطق الساحل الحضرمي، أي حضور لافت لـ«القاعدة» من قبل، وإن وجد فهو حضور طارئ ومؤقت، كبعض العمليات الإرهابية التي نفذها التنظيم في المدينة، والتي كانت في معظمها، عبارة عن ضربات سريعة ومحددة، ثم الإنسحاب، أضف إلى ذلك أن المجتمع المحلي في المكلا، بعيد كل البعد في مزاجه الاجتماعي والسلوكي، وقطعاً الديني، كل البعد عن فكر القاعدة، فهو مجتمع منفتح نسبياً، كما أن وجود عناصر «القاعدة» فيه مكشوف، أي يسهل جداً، ملاحظة وجود تلك العناصر الغريبة أي من خارج نطاق المدينة وربما المحافظة، أو الغريبة أي من خارج نطاق اليمن كاملاً، حيث يضم التنظيم عددا غير قليل من تلك العناصر الأجنبية. وعلى العكس من ذلك، نجد أن التنظيم وعناصره قد يتماهون إلى حد ما مع المجتمع الحضرمي في المناطق الداخلية من حضرموت، وخصوصاً الريفية منها والبدوية، هناك في مجاهل حضرموت، حيث الأودية البعيدة الخالية.

لكل تلك الاعتبارات، كان الجميع يعتقد أنه إذا ما فكر التنظيم في استغلال ظروف وتداعيات «عاصفة الحزم»، فإنه سيتحرك وينشئ له كيانا ضمن هذا المجال الجغرافي، ولا أحد كان حتى يتخيل، أن يضرب التنظيم ضربته في المكلا، وعلى الرغم من الاعتقاد أن التنظيم بالفعل كان يفضل الخيار الأول، لكنْ هناك سبب مهم جداً، وهو بالمناسبة يصب أيضاً في ترجيح فرضية تسليم المكلا، لا سقوطها، ألا وهو أن في سيئون تقع قيادة المنطقة العسكرية الأولى، التي على رأسها قائد يدعى اللواء الحليلي، المصنف من قبل عناصر «القاعدة» وحزب «الإصلاح» الإخواني، أنه موالٍ للحوثيين، حيث يؤخذ عليه منهم، أنّه قد حضر لقاء الإعلان الدستوري، الذي تلا سيطرة «أنصار الله» على العاصمة صنعاء، رغم أن الرجل قد أصدر بيان أعلن فيه موالاته لهادي، لكن في المجمل يدين المجتمع المحلي لحكمة هذا الرجل، الذي حيّد هذه المنطقة عن الصراع، بينما يتعرض لضغوط مستمرة كبيرة، لإرسال قوات من منطقته للقتال في جبهات أخرى، في صف مليشيات هادي و«القاعدة». في النهاية رأت «القاعدة» أن هذه المنطقة العسكرية، التي على رأسها هذا الرجل لن تسقط إلا بالقتال، وبالقتال لن يستطيع «التنظيم» السيطرة عليها، فآثرت السلامة بالذهاب جنوباً صوب المكلا، طالما أن قيادتها العسكرية مستعدة، أو ربما بادرت وعرضت عليها التسليم، فذهب التنظيم واستلم، هذا كل ما في الأمر.

قيام الإمارة

بعد أن استتب الأمر لـ«القاعدة»، أعلنت أنها بصدد تسليم المكلا لهيئة من أبنائها لتدير أمورها، فانبرى لذلك تجمع قبلي محلي، يدعى «حلف قبائل حضرموت»، وأبدى استعداده لإرسال أعداد من أبناء القبائل، لحفظ الأمن في المدينة، ومن ثم تشكيل أي اطار مناسب يراه، لتولي شؤون هذه المدينة، في هذه الفترة الإنتقالية الحرجة، إلا أن «القاعدة» سرعان ما نكث بوعوده، متذرعاً بأن «الحلف» لا يمثل كل شرائح المجتمع المحلي الحضرمي، ويبدو أن «القاعدة» رأت أن «الحلف» لديه القدرة والوسائل للقيام بذلك الدور، وبالتالي لن يستطع أن يختبئ وراءه، أو استخدامه صورياً، كما أن موقفه السياسي لم يجده «القاعدة» مطمئناً، فقد ظل «الحلف» يراقب الأحداث بصمت، والتزم الحياد النسبي، ويُتهم كثير من رموزه ومشايخه بموالاة الرئيس السابق علي عبدالله صالح، وقد استمر ذلك حتى قرب مؤتمر الرياض، حيث تعرض لحملة ضغوط قوية من السعودية، مترافقة مع بعض الإغراءات، مما دفع «الحلف» لإصدار بيان أعلن فيه تأييده للرئيس الفار هادي.

وذهب رئيس «الحلف» ومندوبون مختارون للمشاركة ضمن مؤتمر الرياض الفاشل، وظلوا هناك ولم يعودوا، ولإعطاء أنفسهم (أي القاعدة) شرعية أكبر من شرعية «الحلف»، وللهروب من حساسية الداخل والخارج على حد سواء، تجاه إسم «القاعدة»، سموا أنفسهم (أبناء حضرموت)، وهو مسمى أعم وتنضوي تحته كل شرائح المجتمع الحضرمي، مع حقيقة أن التنظيم يضم الكثير من العناصر اليمنية الأخرى من خارج حضرموت، ناهيك عن عناصر كثيرة أخرى من خارج اليمن كله، بل بعض منها ليست عربية. الغريب أن هذه التسمية السياسية المبتذلة للتنظيم، لم تلق رواجاً حتى من قبل الأقلام المحلية المحسوبة على التنظيم نفسه، والمستفيدة منه، ولم تحظ بأي تداول في الإعلام الخارجي الأجنبي، أو العربي حتى ذلك المشارك منه في العدوان، ما عدا بعض محطات التلفزة والصحف السعودية التي تداولت هذه التسمية، وإن كانت أحياناً نقلاً عن أعضاء حكومة هادي، وهنا ينبغي أيضاً عدم إغفال هذه الإشارة البيّنة، التي تدل على تبني المملكة لهذا التنظيم ومحاولة تلميعه.

أصبحت حضرموت مقسمة إلى ثلاث مناطق سيطرة: السهل الساحلي ويقع تحت سيطرة «القاعدة»، الهضبة الجبلية الجنوبية، حيث أوكلت مهمة حماية الشركات النفطية، لتجمع «حلف قبائل حضرموت»، حسب اتفاق تم بين «الحلف» وقائد المنطقة العسكرية الأولى في سيئون، ثم الجزء الثالث والأخير والذي يضم المناطق الداخلية من حضرموت، حيث وادي حضرموت الكبير، وتجمعاته الحضرية والقروية، بالإضافة لصحارى العبر وثمود، ويخضع لسيطرة المنطقة العسكرية الأولى في سيؤن.

وأنشأ التنظيم لإدارة نشاطاته، عددا من الإدارات الخاصة به، منها «دار الإمارة»، وتتخذ من القصر الجمهوري مقراً لها، حيث مقر الحكم، ومسكن أمير التنظيم، ولعله مناسب هنا، أن نسجل إشارة مهمة أخرى، فقد تم استهداف أغلب إن لم يكن جميع القصور الجمهورية، في كل المحافظات، عدا القصر الجمهوري في المكلا، حيث يسكن أمير «القاعدة»، ثم إدارة الأمن، التي تعنى بالشؤون الأمنية، وهيئة الحسبة، التي تهتم بمراقبة السلوك الإسلامي للمجتمع، وإدارات أخرى كهيئة الفتوى، التي أنشئت تحت لواء «هيئة كبار علماء السنة»، واتخذته كغطاء ديني لها، وأغلب أعضاء هذا المجلس هم ممن قاموا باستدعاء «القاعدة» لاحتلال المدينة في البدء، وإدارة بيت مال المسلمين، وإدارات أخرى. وتولى عناصر التنظيم عملية الإرشاد الديني، والدعوة عبر مكبرات الصوت على سيارات تجوب الشوارع، في مواعيد الصلاة، أو بالتضييق على حركة حرية المرأة في الأسواق وسلوكها العام، وتطبيق بعض «الحدود الشرعية» كجلد شاربي الخمر في الساحات العامة، وكذلك الزناة، ومطاردة ذوي قصات الشعر «الغريبة» من الشباب. وأعدمت في ساحات عامة بعض أعضائها، ممن اتهمتهم بالخيانة، واعتقلت بعض أبناء المدينة بتهم مختلفة، كما أسس بعض المحاكم الميدانية للفصل في بعض القضايا البسيطة (وفق الشريعة)، لكن في المجمل ركز «القاعدة» بشدة على ما يمكن تسميتها الجوانب الطقسية التعبدية، مهملة بقصد باقي جوانب الدين والحياة المهمة. كما حاولت مضاعفة الضرائب المفروضة على نبتة القات الآتية من المحافظات الشمالية، انتهاء بمنعه نهائياً، وفرض غرامات كبيرة على متعاطيها، وغير ذلك من الشكليات اليومية، وطقوس العبادة. ناهيك عن تدشين التنظيم لحملات تكسير وهدم الأضرحة والقباب التي يمثل بعضاً منها قيمة دينية وتاريخية أو أثرية هامة، وما يمثله ذلك من قمع للتنوع، واحترام حرية المذهب والعبادة، والتهديد بنسف متحف المكلا، لاحتوائه على «اصنام». وأوكل مهام الإدارة لـ«المجلس الأهلي» الصوري الذي إنحصر جل نشاطه في منح تراخيص استيراد المحروقات لبعض التجار، بينما فرض على تلك السلع ضرائب متفاوتة من شحنة لأخرى، وهو ما مثّل موردا ماليا إضافيا للتنظيم، والبحث عن شحنات المازوت كوقود لتشغيل محطة كهرباء المدينة، بتمويل من هنا أو من هناك. وما تلبث أن تأتي شحنة حتى تنفد أخرى، حيث يصل معدل ساعات انقطاع الكهرباء أحياناً إلى 24 ساعة، أي إلى يوم كامل من غير كهرباء، في صيف وصلت درجات حرارته إلى أرقام غير مسبوقة، ومعدل الرطوبة فيه كان خانقاً. كل ذلك جعل المواطن في المدينة يعاني معاناة قاتلة، وتسبب ذلك في حالات نزوح كبيرة من سكان المدينة، باتجاه المدن الحضرمية الأخرى الداخلية نظراً للظروف المعيشية الصعبة في المدينة، ناهيك عن إيمان الناس بأن هناك وضعا سيئا، وأن هناك صراعا مؤجلا آتيا لا محالة، ينتظر المدينة وسكانها وحكامها الجدد. وقد حاول «المجلس الأهلي» استمالة الناس وكسبهم في صفه، إلا أن أحداً لم يتجاوب معه، فالأهالي لا ينظرون للمجلس، إلا كمجرد غطاء سياسي لتنظيم «القاعدة». وقد حاول المجلس إعادة الأمور إلى طبيعتها قبل الغزو، لكنّ أحداً لم يستجب، وتوقفت كل إدارات الدولة، عدا بعض المرافق الخدمية والصحية والتعليم، وقد قام رئيس المجلس بزيارة للسعودية مؤخراً، حيث استقبل هناك، وحظي ببعض الدعم المالي ثم عاد.

> لم يستهدف التحالف القصر الجمهوري في المكلا، حيث يسكن أمير «القاعدة»

القادم المجهول

يسود الأوساط الشعبية في حضرموت قلق عام، مما ينتظرهم من أحداث محتملة في ظل سيطرة «القاعدة». معروف أن حضرموت، وحتى وقت قريب كانت كلها في الغالب تتبع المدرسة الصوفية، إلا أن هذه المدرسة الدينية ترهلت وضعفت في العقود الأخيرة، ولم تستطع أن تقاوم المدّ الوهابي الإقصائي القادم من الجوار، وما صاحب ذلك من ضخ مالي كبير. إذ أسّست المدارس الدينية الوهابية، وبُنيت المساجد الجديدة في أغلبها بأموال قادمة من السعودية، كذلك أرسلت البعثات التعليمية الدينية الحديثة في مجملها إلى جامعات المملكة. ونشأت أجيال كاملة تربت وتعلمت في مدارس المملكة وجامعاتها. كل ذلك أسهم في انتشار الفكر الوهابي على حساب المدرسة الصوفية المتراجعة. وتعتبر مدن وبلدات الداخل الحضرمي، كسيؤن، وتريم، وحريضة وكثير غيرها، من أهم مراكز المدرسة الصوفية في حضرموت، وجنوب الجزيرة عموماً، حيث تنتشر فيها مراكز الصوفية ومزاراتها وأضرحتها ومساجدها.

وشهدت المحافظة ثلاثة أنواع من التجنيد: تجنيد يقوم به تنظيم «القاعدة» عبر استقطاب عناصر شابة، تعاني من البطالة، ويقوم بتدريبهم وتسليحهم وإرسالهم إلى مختلف جبهات القتال المستعرة في الوقت الحالي، ويدخر بعضهم استعداداً لصراع قادم، بالإضافة إلى عمل التنظيم على استمالة بعض القبائل المحلية، وتزويدهم بالأسلحة أو بيع بعضها لهم. النوع الثاني تقوم به «هيئة الدفاع الوطني»، حيث يشرف عدد من الضباط الحضارم المتقاعدين، على تدريب المجندين الشباب وتهيئهم لصراع قادم، تحت مسميات مختلفة، ثم النوع الثالث وهو الأخطر، الذي تقوم به دولة الإمارات العربية المتحدة، بالتنسيق مع «حلف قبائل حضرموت»، عبر فتح ثلاثة معسكرات تجنيد وتدريب في المحافظة، نظير مبالغ مالية شهرية كبيرة، استناداً إلى سعر صرف الدرهم الإماراتي المرتفع مقابل الريال اليمني. أحد تلك المعسكرات في صحراء العبر، قصفه من طريق الخطأ طيران التحالف، وأدى إلى مصرع العشرات، وهو متاح لمنتسبين من عموم اليمن، وثمة معسكران آخران مخصصان فقط لأبناء حضرموت، أكبرهما يقع في عمق صحراء ثمود في منطقة رماة.